المدرسة الإنجليزية في الأدب المقارن

الأدب كوسيلة متكاملة للفكر وتعبير مشترك للإنسانية , يختلف بلا شك حسب الظروف الاجتماعية للفرد وحسب المؤثرات العرقية والتاريخية و الثقافية للفرد و هنا يأتي الأدب المقارن بصفة خاصة ليدرس هذه الاختلافات والتشابهات بين الآداب . ولقد كان ظهور الأدب المقارن في أواخر القرن التاسع عشر مع المدرسة الفرنسية وتطورت اتجاهاته لاحقا مع المدرسة الأمريكية و المدرسة الإنجليزية .

والدارس المقارن عليه أن يكون متمكنا من المهارات اللغوية لأنه سيقف على الحدود اللغوية للأدب القومي , ويتابع حركة التغيرات بين الأفكار والموضوعات و الكتب وحتى بين أديبين أو أكثر , و لو دققنا أكثر نجد أن الأدب المقارن ببساطة هو مقارنة الأدب بالفنون الأخرى كالمسرح وغيرها...

ولقد أردت بهذه الدراسة أن أسلط الضوء على نشأة الأدب المقارن و أتعمق أكثر في الاتجاهات و المدارس التي احتضنته وخاصة المدرسة الإنجليزية و أحاول أن أحدد أهم مجالاته وفروعه و أبرز ولو بدراسة متواضعة أهمية هذا الأدب ومكانته.

الكلمات المفتاحية : الأدب المقارن – النشأة – المدرسة الإنجليزية – المجالات – أهمية الأدب

1 – نشأة الأدب المقارن :

لقد تأثرت الآداب فيما بينها منذ القدم , فنجد الآداب القديمة والحديثة والشرقية و الغربية كلها لعبت دور المؤثر والمتأثر فالأدب الروماني تأثر بالأدب الاغريقي عندما كان غزو الرومان لأثينا وهناك أخد الكثير وأعطى للأدب الاغريقي , والأدب العربي أيضا تأثر بدوره مع مختلف الآداب نتيجة الفتوحات الاسلامية داخل الفرس والذين ساهموا كثيرا في مزج وجه جديد للأدب العربي الفارسي حيث ظهرت الترجمة في العصر الأموي وازدهرت الأجناس الأدبية أكثر في العصر العباسي وكان هناك تأثر أيضا بالأدب اليوناني والهندي وحدوث تطورات في التفكير والتعبير الأدبي .

وكل هذه المحاولات تعد الطريق الأول الذي مهد للمقارنة بين الآداب و الدراسات ولقد تطورت مع القرنين السابع و الثامن عشر ميلادي وظهرت أبحاث و أعمال تهتم بالتطوير والمقارنة حيث نجد في القرن السابع عشر الكاتب الفرنسي (بوهور) يقول : " إن نطقنا نحن الفرنسيون هو النطق الطبيعي , فلغة الصينيين و الآسيويين غثاء وكلام الألمان صخب وضوضاء و حديث الأسبان موقع , و منطق الإيطاليين زفير و لغة الإنجليز صفير و الفرنسيون وحدهم كم الذين يتكلمون " [1] , وهذا بحد ذاته مقارنة بين فكر و فكر آخر , حيث تطرق بوهور إلى رؤيا أراد من خلالها توضيح لغة ونطق مختلفة بين كل منطقة من مناطق أوربا و العالم .

و نستطيع القول أن الأدب المقارن هو فرع من فروع المعرفة يتناول المقارنة بين أدبين

أو أكثر ينتمى كل منهما إلى أمة أو قومية غير الأمة أو القومية التى ينتمى إليها الأدب الآخر، وفى العادة إلى لغة غير اللغة التى ينتمى إليها أيضا ، وهذه المقارنة قد تكون بين عنصر واحد أو أكثر من عناصر أدبٍ قوميٍّ ما ونظيره فى غيره من الآداب القومية الأخرى، وذلك بغية الوقوف على مناطق التشابه ومناطق الاختلاف بين الآداب ومعرفة العوامل المسؤولة عن ذلك. كذلك فهذه المقارنة قد يكون هدفها كشف الصلات التى بينها وإبراز تأثير أحدها في الأخرى، وقد يكون هدفها معرفة الصورة التى ارتسمت فى ذهن أمة من الأمم عن أمة أخرى من خلال أدبها، وقد يكون هدفها هو تتبع نزعة أو تيار ما.... و يركز الأدب المقارن على الصلات بين الآداب وعملية التأثر والتأثير اللذين تتبادلهما.

الأدب المقارن، في أبسط مفاهيمه وتعريفاته، هو ذلك النوع من الدراسات الأدبية الذي يتمثل جوهره في إجراء مقارنات بين آداب قومية مختلفة، أي بين آداب كُتبت بلغات متعددة، ومن المقارنين من يريد أن يحصر المقارنة

في أدبين قوميين لاغير، وهناك من يريد توسيع دائرة المقارنة لتشمل آداباً قومية متعددة، وهناك من يدعو إلى مقارنة الأدب بالفنون الأخرى من تصوير وغيره، لا بل إلى مقارنته بميادين المعرفة الإنسانية كلّها كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع.

يمكن للأدب المقارن أن يمثل جسرا للحوار بين الثقافات المختلفة من خلال إيجاد مواطن التأثير والتأثر بينالنصوص الإبداعية لتلك الثقافات وتشخيص نقاط الاختلاف والائتلاف بين الأنظمة الثقافية والأدبية المختلفة. والتركيز على البعد الإنساني للأدب وذلك من خلال إبراز التقارب بين الغايات القصوى التي ترمى إليها الآداب القومية المختلفة ، التي قد تتباين من حيث وسائل التعبير واللغة ، لكنها تتآلف من حيث الغاية.

وميادين الأدب المقارن متعددة فقد يكون ميدانه المقارنة بين جنس أدبى كالقصة

أو المسرحية أو المقال أو المقامة أو القصيدة أو الملحمة فى أدبين مختلفين أو أكثر، وقد يكون ميدانه المقارنة بين الأشكال الفنية داخل جنس أدبى من هذه الأجناس فى أدب ما ونظيراتها فى أدب آخر، كنظام العروض والقافية أو الموشحات مثلا، وقد يكون ميدانه الصور الخيالية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، وقد يكون ميدانه النماذج البشرية والشخصيات التأريخية فى الأعمال الأدبية، وقد يكون ميدانه التأثير الذى يُحْدثه كتاب أو كاتب ما . يمكن للأدب المقارن أن يمثل جسرا للحوار بين الثقافات المختلفة من خلال إيجاد مواطن التأثير والتأثر بين النصوص الإبداعية لتلك الثقافات وتشخيص نقاط الاختلاف والائتلاف بين الأنظمة الثقافية والأدبية المختلفة.

وشهد أيضا القرن الثامن عشر كذلك مجهودات (فولتير) التي ساهمت على تمهيد الطريق أمام الدراسات المقارنة " وكانت معرفة فولتير العميقة بالإنجليزية قد ساعدته أولا على اكتشاف هذه العبقرية التي كانت مجهولة , عبقرية شكسبير وتقديمه إلى القارئ الفرنسي و الأوربي و العالمي من بعده " [2] . يعني أن ما قاله (فولتير) واكتشفه في القرن الثامن عشر كان قد مهد الطريق فلسفيا و أدبيا للدراسات المقارنة , اهتم النقاد في هذا العصر أي في القرنين السابع والثامن عشر بتقنين الأدب أي استنباط قواعد معينة بوصفها عقائد تطبق في الأدب ويُحكم بها عليه. من يخرج عليها يكون عن دائرة الإبداع. ورغم وجود اتصال بين الآداب الأوروبية وتعدد لرحلاتهم وكثرة الترجمات إلا أنه لم توجد دراسة مقارنة ، وكانت الدراسات الموجودة تأريخية وحسب .

و بعد هذا القرن أتى الميلاد الحقيقي للأدب المقارن و بالتحديد في القرن التاسع عشر, حيث شهد هذا العصر ظهور اتجاهين مهمين في هذا الإطار هما: الحركة الرومانسية والنهضة العلمية، فقد أثَّرا في الأدب المقارن، وساعدا على تطويره وتنميته؛ إذ ذاعت بسببهما فكرة الأدب المقارن ورُوِّج لها في أوروبا، وظهرت في ذلك بحوث كثيرة، اكتملت منهجيًّا على يد مجموعة من الباحثين في هذا الميدان، مع ملاحظة اختلاط مفهوم الأدب المقارن في هذه المرحلة بمفهومي الأدب العام والأدب العالمي. والملاحظ أنه حتى نهاية الثمانينات وبعد كل ذلك التطور المهم الذي حققه الأدب المقارن, ما زالت هذه المفهومات مختلطة حتى في بعض البحوث.

وللأدب المقارن فوائد عدة منها التعرف إلى فرع حديث من فروع الدراسات الإنسانية الأدبية , و إطلاع المثقف على الآداب الأجنبية وموازنتها بالأدب القومي , بيان أوجه الصلات والعلاقات الفكرية والإنسانية بين البشر.
و الوقوف على مكانة الأدب العربي بين الآداب العالمية شرقا وغربا , و دراسة التيارات الأدبية العالمية مثل الكلاسيكية ، والرومانسية .. وغيرها و أيضا كشف طبيعة التجديد واتجاهاته في الأدب القومي والآداب العالمية يقول (ألكسندر ديما) في (كتابه مبادئ علم الأدب المقارن) : " أن كل هذه الأعمال المليئة بالروح و الشمولية والتي تطلعت منذ بداية القرن التاسع عشر إلى إدراك الظ واهر الأدبية و الثقافية في الإطار التاريخي المقارن هيأت بشكل أساسي تلك التربة الصالحة التي نما فوقها علم الأدب المقارن فيما بعد " [3] , إن بداية القرن التاسع عشر هي اللبنة الأساسية التي ظهر فيها الأدب المقارن و حاول لاحقا التطور عبر مختلف الجهود النقدية لا سيما المدرسة الفرنسية التي كانت لها الريادة في احتضان هذا الأدب وذلك لأن المناخ الثقافي فيها جعلها مركزا ثقافيا مهما .
لكن دراستنا لا تسلط الضوء على جهود المدرسة الفرنسية و إنما على المدرسة الإنجليزية وكيف ساهمت في تطور الأدب المقارن في إطار الدراسات و الأبحاث النقدية و الأدبية .

2 – المدرسة الإنجليزية في الأدب المقارن :

لقد ضيّق الأدب المقارن التقليدي رقعة الدراسات المقارنة ، إذ حصرها في التأثير والتأثر، كما أقام جداراً مصطنعاً بين الجوانب التاريخية وبين الجوانب الجمالية والذوقية لدراسة الأدب ، أي بين تأريخ الأدب والنقد الأدبي ، وهذه نقطة اهتمام دراسات التأثير والتأثر. فليس بوسع مؤرّخ الأدب مهما كان موضوعياً ، أن يتخلى بصورة تامة عن التذوق والتقييم ، وأن يجعل دراسته التاريخية خالية تماماً من الأبعاد النقدية لكن قد عرفت إنجلترا في القرن التاسع عشر تغيرات في مجال الدراسات الأدبية و النقدية و الأمر الذي ساهم في تشكيل نظرة جديدة حول الأدب المقارن و الخروج من تلك الرؤية الأحادية التي ضيقت من مجال الدراسات و ظهرت دراسات أخرى متخصصة حاولت أن تقدم للقارئ نظرة منهجية جديدة.
فبدلا من دراسة أدباء و فنانين ينتم ون إ لى فترات متباعدة فقد حاولت المدرسة الإنجليزية دراسة و معالجة قضايا أدبية من مختلف العصور و الفترات , إنّ استبدال دراسات التأثير بنوع آخر من الدراسات المقارنة ، نوع يعتمد نظرياً على المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة ، كنظرية الأدب الجدلية والنقد الجديد ونظرية التلقي ونظرية التناص.. الخ، ليس بالأمر السهل. فهو يتطلب استيعاب تلك المناهج استيعاباً وافياً من جهة ، وتطوير القدرة على استخدامها تطبيقياً في الدراسات الأدبية المقارنة من جهة أخرى.
و قد لمعت وجوه بريطانية جديدة في هذا المجال أمثال (ماتيو أرنولد) و (هنري جيفورد) الذي يقول في كتابه (الأدب المقارن) : " لقد كتبت على أوربا و استمراريتها ليس لأن الأدب المقارن بخص أوربا وحدها و بل لأن للناقد الإنكليز ي مجالا طبيعيا مهما هنا و مجالا يتطلب دراسة خاصة في هذا الوقت تماما الذي أصبحت فيه

الحضارة الأوربية شيئا مميزا ربما في آخر مرحلة تطور لها " [4] , يرى (هنري) أن للناقد الإنجليزي مكانا و خاصية تتطلب الدراسة في الأدب المقارن .

و لقد اتخذت المدرسة الإنجليزية موقفا وسيطا بين المدرسة الفرنسية و المدرسة الأمريكية و خصوصا المفهوم الفرنسي حيث تأثرت به كثيرا " و كان النقاد الإنجليز قد استفادوا من الروح الانفتاحية لدى الفرنسيين فأخذ واحد منهم وهو (ماتيو آرنولد) يدعو إلى الانفتاح في دراسة الأدب " [5] .

و معنى ذلك أن الأدب المقارن في إنجلترا قد احتك مع المدرسة الفرنسية و لكنه يعمل أكثر على دراسة نصوص متنوعة لأدباء مختلفين من ثقافات و أعراف من أجل الوصول إلى فهم أدق و أعمق . و لعل هذا التفكير يشبه ما جاء به الأدب العالمي لأن (أرنولد) كان تلميذ (لغوته) و تأثر بأفكاره عن الأدب العالمي , فهذا الأخير world literature مصطلح من وضع (غوته), وكان ينطوي على حلم بزمان تصير فيه كل الآداب أدباً واحداً. أما الأدب العام general literature فمصطلح استعمل غالباً لوسم تلك الكتابات التي يصعب أن تُصنَّف تحت أي من الدراسات الأدبية وتظهر ذات أهمية متجاوزة لنطاق الأدب القومي. وهي أحياناً تشير إلى الاتجاهات الأدبية أو المشكلات أو النظريات العامة في الأدب , أو الجماليات. كما صُنِّفت تحت هذا العنوان مجموعات النصوص والدراسات النقدية والتعليقات التي تتناول مجموعة من الآداب ولا تقتصر على أدب واحد. وهكذا يتطابق الأدب العام أحياناً مع مبادئ النقد ونظرية الأدب , أي مع كل دراسة أدبية تركز على التنظير ولا تقتصر أمثلتها على أدب واحد.

أما الأدب المقارن فهو دراسة الأدب خلف حدود بلد معيّن , ودراسة العلاقات بين الأدب ومجالات أخرى من المعرفة والاعتقاد مثل الفنون كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى والفلسفة , والتأريخ , والعلوم الاجتماعية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع , والعلوم , والديانة , وغير ذلك. وباختصار هو مقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني.

لقد ضيّقت المدرسة الفرنسية و الأمريكية ميدان الأدب المقارن، إذ حصرته في المقارنة بين أدبين قوميين، كأن يقارن المرء بين الأدب الفرنسي والأدب الألماني، وحجّتها في ذلك أنّ مقارنات كهذه تفضي إلى نتائج محددة ومفيدة، وتخدم العلاقات الأدبية الثنائية، وبذلك فهي تخدم العلاقات الثنائية بين أمّتين، كالفرنسيين والألمان. أمّا المدرسة الإنجليزية فهي توسّع دائرة المقارنة بين الآداب القوميّة إذ تشمل آداب عدة، كأن يدرس المرء علاقات الأدب الفرنسي بالأدب الألماني والإنكليزي والإسباني والإيطالي والروسي وغير ذلك من الآداب القومية. وحجّتها هي أنّ العلاقات الأدبية تتجاوز الإطار الثنائي بطبيعتها ، ويندر أن تكون ثنائية. فللأدب الفرنسي مثلاً علاقات بمعظم الآداب الأوروبية وبآداب غير أوروبية، فلماذا نحصر الدرس المقارن في مقارنته بأدب قومي واحد .

وتوسّعت دائرة الأدب المقارن توسيعاً جذرياً، إذ يشمل المقارنة بين الأدب وبين ظواهر غير أدبية. ويضيف هنري جيفورد الإنجليزي أن " أكثر المقارنات فائدة هي تلك المقارنات التي يقبلها أدباء أنفسهم أو تلك التي

يتحدون قراءهم للقيام بها , تلك المقارنات التي تنبع من صدمة الت عرف حين يصبح كاتب ما على وعي بأن ثمة علاقة بينه وبين كاتب آخر , وهذا ماشعر به هنري جيمس نحو تورجنييف , وما أحس به باوند نحو بروبرتيوس, وبوشكين تجاه بايرون " [6] ، وقد شهد القرن التاسع عشر عاملا مهما في تطور الأدب المقارن و هو هيمنة اللغة الإنجليزية في العالم و تراجع اللغات الأخرى الكلاسيكية .

ولكن رغم كل هذا إلا أن الأدب الإنجليزي ظل إلى وقت قريب يحتفظ بانعزاليته , ولئن قام علاقات مع آداب أخرى إلا أن هذه العلاقات كانت ضيقة الحدود لا تصل إلى درجة التفاؤل الحقيقي و الاتصال الكامل . ومع الزمن بدأ الناس يهتمون بالأدب المقارن فنوقشت فيه رسائل جامعية وتخصصت فيه مجلات أدبية تناظر المجلات الفرنسية .

إحالات البحث

[1] أحمد درويش – الأدب المقارن دراسات نظرية وتطبيقية – دار النصر للتوزيع و النشر – 1346هـ – 2007م – ص 19

[2] أحمد درويش – الأدب المقارن دراسات نظرية و تطبيقية – ص 20

[3] ألكسندر ديما – مبادئ علم الأدب المقارن – ترجمة د مخمد يونس – م راجعة د عباس خلف – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة – 1987 – ص 28 .

[4] هنري جيفورد – الأدب المقارن – ترجمة د فؤاد عبد المطلب – منشورات اتحاد كتاب العرب – دمشق – 2012 – ص 15

[5] طلعت صبح السيد – الأدب المقارن – الطبعة الأولى – 2005 – ص 13

[6] سوزان باسنيت – الأدب المقارن – مقدمة نقدية – ترجمة : أميرة حسن – المجلس الأعلى للثقافة – 1999–ص 47–48

مراجع البحث

1 – أحمد درويش – الأدب المقارن دراسات نظرية وتطبيقية – دار النصر للتوزيع و النشر – 1346هـ – 2007م

2 – ألكسندر ديما – مبادئ علم الأدب المقارن – ترجمة د مخمد يونس– م راجعة د عباس خلف–بغداد– دار الشؤون الثقافية العامة

3 – طلعت صبح السيد – الأدب المقارن – الطبعة الأولى – 2005

4 – هنري جيفورد – الأدب المقارن – ترجمة د فؤاد عبد المطلب – منشورات اتحاد كتاب العرب – دمشق – 2012

5 – سوزان باسنيت – الأدب المقارن – مقدمة نقدية – ترجمة : أميرة حسن – المجلس الأعلى للثقافة – 1999